المجتمع المسلم في ضوء سورة "الحجرات"

إعداد

هشام كمال علي أبو العز

مدرس بجامعة الكويت (منتدب)

من ٢٠٠١ إلى ٢٠٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا(3) [١] .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وأنزل عليه كتاباً تبياناً لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ، وصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه وسلك طريقه في إحسان إلى يوم الدين ..

أما بعد..

فإن القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى الذي أنزله لهداية البشر للتي هي أقوم ، يرسخ عقائدهم ، ويقوم سلوكهم ، ويذكي نفوسهم ومن السور التي اعتنت ببناء المجتمع الإسلامي عقدياً وخلقياً سورة الحجرات لما احتوته هذه السورة الكريمة من آداب وفضائل كفيلة ببناء المجتمع الإسلامي على أفضل مستوى ، أردت من خلالها إظهار هذه الآداب في بحث علمي حتى يتسنى للناس تطبيقها والعمل بها . فموضوع هذا البحث إن شاء الله تعالى هو :

(المجتمع المسلم في ضوء سورة الحجرات)

وهذا البحث يتكون من مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة على النحو التالي

المقدمة : وتشمل أهمية الموضوع وخطة البحث .

التمهيد : ويتضمن التعريف بالسورة الكريمة وبيان بالمضون الإجمالي لها .

المبحث الأول: محور السورة الكريمة ومساهمتها في بناء المجتمع الإسلامي .

المبحث الثاني : منهج السورة في الدعوة إلى صون حرمات المسلمين.

---

[١]) سورة الكهف آيه ١، ٢ ، ٣

المبحث الثالث: منهج السورة في تقرير الضوابط الإيمانية التي يجب أن يتصف بها المجتمع الإسلامي.

الخاتمة : وتشمل أهم النتائج .

مصادر البحث.

تمهيد:

ويجدر بنا أن نعرف بسورة الحجرات ، وذلك قبل أن نشير إلى ما اشتملت عليه من آداب ومقاصد نما وترعرع في كنفها مجتمع إسلامي كريم طاهر القلب نظيف اللسان حسن المعاشرة صادق الإيمان مراع حق الله تعالى ومقر بمشيئته في كل شئ بحيث تكون كلمة الله هي العليا دائماً ..

*تعريف عام بالسورة الكريمة

سورة الحجرات سورة مدنية بإتفاق العلماء أي أنها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة بعد سورة المجادلة ، وقد نزل معظم هذه السورة على النبي صلى الله عليه وسلم في العام التاسع من الهجرة المباركة .. – وهي السورة رقم(٤٩) حسب ترتيب السور في المصحف الشريف وعدد آيات سورة الحجرات ثماني عشرة آية وعدد كلماتها ثلاثمائة وثلاث وأربعون كلمة وعدد حروفها ألف وأربعمائة وستة وسبعون حرفاً.. وسميت السورة بسورة الحجرات لإشتمالها على ذكر حجرات النبي صلى الله عليه وسلم التي ناداه وفد بني تميم من ورائها في وقت القيلولة حيث كان صلى الله عليه وسلم مستريحا من حرارة الجو وقت الظهيرة.

كما تسمى بسورة الآداب لما اشتملت عليه من الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب..

هذا .. وسورة الحجرات هي إحدى سور القرآن الكريم كلام الله تعالى وكتابه الخالد الذي ختم به الكتب المنزلة ، وأنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الذي ختم به الأنبياء عليهم السلام ليكون دستور الخالق لإصلاح الخلق ، وقانون السماء لهداية الأرض ، حيث أنهى إليه منزله سبحانه كل تشريع وأودعه كل نهضة وناط به كل سعادة ، وجعله مستند الإسلام في عقائده وعباداته وحكمه وأحكامه وأخلاقه وآدابه وقصصه ومواعظه وعلومه ومعارفه "من جعل إمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه الى النار"

كما أنه مأدبة الله سبحانه وتعالى التي يأخذ منها العبد ما شاء لما يشاء قال الله تعالى :" وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ"[١].

وقد افتتحت سورة الحجرات ب"يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا....." وذكر هذا اللفظ وهو للنداء بوصف الإيمان في هذه السورة خمس مرات . والمخاطب فيها المؤمنون – والمخاطب به أمر أو نهي . وذكر فيها "يَا أَيُّهَا النَّاسُ...." مرة واحدة والخطاب فيها يعم المؤمنين والكفرة كما أن المخاطب به قوله تعالى "إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ....." يعمهما فناسب فيها ذكر الناس ..

*مقاصد السورة الكريمة:

هذا واذا انتقلنا إلى مقاصد السورة الكريمة لبيان أثر هذه المقاصد وما اشتملت عليه من آداب في بناء مجتمع مسلم متماسك الأركان قوي البنيان وجدنا سورة الحجرات على الرغم من قصرها سورة جليلة القدر عظيمة النفع تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود والإنسانية ، حقائق تفتح للقلب والعقل أفاقاً عالية وآمادا بعيدة ، وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة ، وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم وقواعد التربية والتهذيب، ومبادئ التشريع والتوجيه ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات وما يحقق المجتمع الإسلامي الذي ينشده القرآن الكريم ويدعوا إليه .

---

[١]) سورة النحل آيه ٨٩

المبحث الأول

محور السورة ومساهمتها في بناء المجتمع الإسلامي

ويشمل الآتي:

أولاً : اتباع منهج الله تعالى:

ومنهج الله تعالى هو دينه الذي ارتضاه لعباده ، وشرعه الذي ضمنه سعادتهم في الحياتين الدنيا والآخرة ، وهو الهدى الذي لا يقبل التحريف ولا يصلح الإنسانية غيره ، ولا يستقيم أمرها إلا بهداه. فمن اتبع هذا المنهج واتخذ من الكتاب والسنة نوراً يهتدي به في جميع شئونه هداه ربه سبل السلام وأخرجه من الظلمات إلى النور وهداه إلى صراط مستقيم قال الله تعالى :"قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(١٦) "[١]، وقال سبحانه :" فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى " [٢] ، ومن أعرض عن المنهج ، واتبع السبل التي تفرقت به سبيل الله وجرى وراء النظم القاصرة التي ابدعها البشر القاصرون لأنفسهم بوحي من شياطين الإنس والجن ... فقد ضل وغوى واهدر كرامته ، ودحر إنسانيته ، وكان عاقبة أمره خسرا. قال الله تعالى :" وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ(127) " [٣]والتأدب مع الله الذي يكمن في إتباع منهج الله تعالى إنما يتحقق بالتطبيق العملي لشرع الله فلا حكم إلا بما أنزل الله ولا قضاء إلا بما قضى الله ورسوله

---

[١]) سورة المائدة آية ١٥، ١٦

[٢]) سورة طه آية ١٢٣

[٣]) سورة طه آية ١٢٤-١٢٧

قال تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "[١] ، أي يا أيها الذين آمنوا لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحاً ، لا في خاصة أنفسكم ، ولا في أمور الحياة من حولكم ، ولا تقولوا في أمر قبل قول الله فيه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ولا تقضوا في أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم ... يقول الضحاك في معنى قوله تعالى :".. لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ" أي لا تقضوا أمر دون الله ورسوله من شرائع دينكم . ويقول ابن عباس رضي الله عنهما : لا تَقُولُوا خِلافَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ...." [٢] .

ويقول القرطبي في معنى قوله تعالى :" لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ" أي : لا تقدموا قولا ولا فعلا بين يدي الله وقول رسوله وفعله فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا . ومن قدم قوله أو فعله على الرسول – صلى الله عليه وسلم – فقد قدمه على الله تعالى لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – إنما يأمر عن أمر الله عز وجل[٣].

وصدق الله إذ يقول :" وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا"[٤].

وعلى نهج الإتباع لمنهج الله تعالى سار الصحابة رضوان الله عليهم وبهذا الأدب الرفيع تأدبوا مع ربهم سبحانه ، ومع نبيهم صلى الله عليه وسلم ، فما عاد مقترح منهم يقترح على الله ورسوله ، وما عاد واحد منهم يدلي برأي لم يطلب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدلي به، وما عاد أحد يقضي برأيه في أمر أو حكم إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول النبي صلى الله عليه وسلم.

روي الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة بإسناده عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبعث معاذا إلى اليمن قال:"" كيف تقضي إذا عرض

---

[١]) سورة الحجرات آية ١

[٢]) تفسير القرآن لأبن كثير جـ٤ ص٢٠٥

[٣]) الجامع لآحكام القرآن للقرطبي جـ١٦ صـ٣٠٠

[٤]) سورة الأحزاب آية ٣٦

لك قضاء قال أقضي بكتاب الله قال فإن لم تجد في كتاب الله قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فإن لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في كتاب الله قال أجتهد رأيي ولا آلو فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم "[١].

فقد أخر معاذ رضي الله عنه رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ولم يقدم رأيه عليها ، لأنه لو قدم رأيه عليهما قبل البحث عنهما لكان ذلك من باب التقديم المنهي عنه بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ويبرز سؤال هنا : لماذا العمل بمنهج الله؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول : لأن منهج الله هو المنهج الذي يرعى خصائص الإنسان ويحترم إنسانيته ويحقق خلافته عن الله في الأرض – كما أنه المنهج الذي يرسم للبشر خطة السير الصحيح وسلوك السبيل الأقوم في الحياة لتحقيق أسمى الغايات وإدراك السعادة الكاملة للإفراد والجماعات .

إن العمل بمنهج الله تعالى فيه الخير كل الخير والسعادة الدائم في الدنيا ، والفلاح والجنة في الآخرة .

أما السعادة الدنيوية فالأمثلة على ذلك كثيرة من ماضي هذه الأمة حينما كانت تحكم بشرع الله وتعمل دائماً بمنهج الله وترعى حدود الله ، فقد سادت الدنيا كلها ورفرفت رايات التوحيد في مشارق الأرض ومغاربه ، وبسط الإسلام سلطانه على ربوع المعمورة وصارت للمسلمين الكلمة العليا لما أعلوا كلمة الله في العالمين ، وصدق الله تعالى إذ يقول :" وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ

---

[١]) مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ٥ ص ٢٣٠ ،٢٤٢

خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ " (١).

وقال تعالى :" مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"(٢).

وقال الله تعالى:" فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ".(٣).

هذه هي النتائج الحتمية في الدنيا لمن التزم بمنهج الله تعالى وراعى حدود الله ، وأما الفلاح والجنة في الآخرة : فلأنهما النتيجة الحتمية لأولياء الله وعباده المتقين _ قال تعالى :" تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا " (٤).

وقال سبحانه وتعالى :" (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧ (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا(108) " (٥).

وقال تعالى :" وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا " (٦).

وأما عدم العمل بمنهج الله والخروج على أمر الله تعالى ففيه الشقاء كل الشقاء والضنط كل الضنك كل الضنك في الدنيا ، والعذاب الآليم في الآخرة، قال تعالى:" وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ

---

١) سورة النور آية ٥٥

٢) سورة النحل آية ٩٧

٣) سورة طه آية ١٢٣

٤) سورة مريم آية ٦٣

٥) سورة الكهف آية ١٠٧، ١٠٨

٦) سورة النساء آية ٥٧

تُنسَىٰ (126) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ(127) " [١].

وقال تعالى : "وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا" [٢].

هذا وإن الأمثلة الدالة على شقاء وتعاسة الخارجين على منهج الله كثيرة مما يخجل الإنسان عن ذكره ويستكنف اللسان عن النطق به مما يهدر إنسانية الإنسان وكرامته ويستحق المرتكبون له أن يمطروا بعذاب الله كما أمطرت قرى لوط عليه السلام في الماضي بحجارة من سجيل.

وما إنتشار مرض الإيدز في الشرق والغرب في أكثر البلاد تحضراً كأمريكا وروسيا وغيرهما إلا دليل واضح على صحة ما نقول من أن البعد عن منهج الله سبب التعاسة في الدنيا والآخرة .

كما أن إنحراف الشباب من الجنسين في سن مبكرة وإنغماسهم في الموبقات والشذوذ ورذيلة المخدرات التي إستشرى خطرها في العصور المتأخرة – وظاهرة القلق والإكتئاب النفسي ، وإنعدام الروح الجماعية في الأسرة والمجتمع، وتفكك الأسر وضعف الرابطة الأسرية مما يترتب عليه إنعدام الشعور بالحنان والدفء والتكافل والرحم العائلي وغير ذلك من الأمور التي تؤكد أن البعد عن منهج الله فيه الشقاء كل الشقاء ، والتعاسة كل التعاسة في الدنيا والآخرة .

ثانياً: التزام الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بإحترامه وتعظيم شأنه وعدم رفع الصوت في حضرته.

رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رحمة إلى خلقه ، والمنقذ للبشرية جمعاء من ظلمات لشرك والجهل والضلال ، والأخذ بيدها إلى نور الإيمان والهدى والرشاد.. ومن أجل هذه المزايا وغيرها من الخصوصيات الكثيرة الاخرى استحق من أمته واستوجب عليهم

---

[١]) سورة طه آية ١٢٤–١٢٧

[٢]) سورة الجن آية ١٧

احتراماً خاصاً لشخصه . ولم يوجبه هو صلى الله عليه وسلم تواضعاً منه وكرماً ، وأنما أوجبه الله على أمته من أجله...

فقال سبحانه :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ "[١].

فبهذا الأدب السامي يؤدب الله تعالى عبادة المؤمنين بأن يوقروا نبيهم الذي دعاهم إلى الإيمان ، فلا يرفعوا أصواتهم فوق صوته صلى الله عليه وسلم إذا نطق ، ولا يبلغوا بأصواتهم وراء الحد الذي يبلغه صوته عليه الصلاة والسلام (لأن في رفعهم أصواتهم فوق صوته دليل على قلة الاحتشام وترك الاحترام ، هذا فضلاً عما قد ينتهي إليه أمرهم من حبوط اعمالهم وهم غير شاعرين ولا عالمين ..)

كما أنه يجب عليهم إذاً كلموه صلى الله عليه وسلم وهو صامت ألا يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض ، والا ينادونه بإسمه المجرد كأن يقولوا يا محمد ويا أحمد ، بل يخاطبونه بالنبوة مع الإجلال والتعظيم خشية أن يؤدي إلى الإستخفاف بالمخاطب فيكفروا من حيث لا يشعرون ، كما هجن سبحانه وتعالى الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم في حال خلوته من وراء جدر كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبه إلى فظاعة ما جسروا عليه ، وأن هذا النداء على هذه الصفة ، مناف للآداب والتوقير اللائق بشخص النبي صلى الله عليه وسلم وحرمته ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول ، ويكون صنيع مثل هؤلاء معه من المنكر الذي يبلغ من التفاحش مبلغاً لا يقدر قدره.

---

[١]) سورة الحجرات آية ٢، ٣ ، ٤ ،٥

وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع من النبي صلى الله عليه وسلم فما كان أحد منهم يرفع صوته بعد ذلك في مجلسه ، ولا أن يناديه الا بأتم إجلال وأكمل احترام ، وفي أنسب أوقاته صلى الله عليه وسلم ، روى أنه لما أنزل قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ... " تخلف ثابت بن قيس عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إليه صلى الله عليه وسلم : فقال يا رسول الله لقد أنزلت هذه الآية وأني رجل جهير الصوت ، فأخاف أن يكون عملي قد حبط، فقال عليه رسول الله "لست هناك انك تعيش بخير وتموت بخير وانك في اهل الجنة " فقال : رضيت ببشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا أرفع صوتي على على رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا ، فأنزل الله :" إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ " .

واحترام النبي صلى الله عليه وسلم وخفض الصوت عنده واجب في حياته وبعد مماته .. وقال علماء هذه الأمة : أنه يكره رفع الصوت عند قبره صلى الله عليه وسلم كما كان يكره في حياته عليه الصلاة احتراماً له في كل حال ، ومن التزام الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم العمل بسنته والتمسك بكل ما جاء به والإنصياع لأوامر الدين بالكلية والسير تحت راية الإتباع وخلع كل ما عادا ذلك من أبواب الإبتداع.

وقد روى عن أمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم – قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء فقال أتدريان أين انتما ؟ ثم قال : من اين أنتما ؟ قالا من أهل الطائف ، فقال لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكم ضرباً .

وقد عرف المسلمون هذا الأدب الرفيع ، وتجاوزوا به شخص النبي صلى الله عليه وسلم إلى كل أستاذ وعالم لا يزعجونه حتى يخرج إليهم ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم .. يحكى أن أبا عبيد العالم الزاهد الراوية الثقة : قال ما دققت باباً على عالم قط حتى يخرج قي وقت خروجه.

المبحث الثاني

منهج السورة في الدعوة إلى صون حرمات المسلمين

ويشمل:

أولاً: التثبيت في تلقي الأخبار،وعدم سماع كلام الفاسق حتى يظهر الأمر وتتضح الحقيقة

لا شك أن التثبت في تلقي الأخبار وعدم سماع كلام الفاسق حتى يظهر الأمر وتتضح الحقيقة أمر لابد منه وأساس متين يقوم عليه بناء المجتمع المسلم السليم ، إذ في التثبت من الأخبار وعدم التعجل في التصرف بناءًا على خبر الفاسق ، ونجاة للمجتمع الإسلامي من الوقوع في مواطن الزلل ، والتردي في مهاري الردي ، وبعد بالمسلمين عن إلقاء أنفسهم في التهلكة ، وعن تجرعهم كؤوس الندم في وقت لا ينفع فيه الندم ، فكم من كلمة نقلها فاجر فاسق سببت كارثة كبيرة ، وكم من خبر لم يثبت منه سامعه جير وبالا شديداً وإنقساماً فظيعاً.

من أجل ذلك أمر الله عبادة المؤمنين بأمر نافع لهم في دينهم ودنياهم أنه إذا جاءهم الفاسق المهاجر بترك شعائر الدين بأي خبر فلا يصدقونه بادئ ذي بدء حتى يتثبتوا ويتطلبوا انكشاف الحقيقة ولا يعتمدوا على قوله ، لأن من يبالي بالفسق لا يبالي بالكذب لذي هو من فصيلته – وذلك كراهة أن يصيبوا بأذى قوما هم جاهلون حالهم ، فيندموا على ما فرط منهم ويتمنوا أنه لو لم يكن قد وقع، ومن أجل ذلك جاء النداء من الله لجماعة المؤمنين يبين لهم فكيف يتلقون الأخبار وكيف يتصرفون فيها ، كما يقرر ضرورة التثبت من مصدرها . قال تعالى :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ"[1].

---

[1]) سورة الحجرات آية ٦

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، حين بعثه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على صدقات بني المصطلق . وقد روي ذلك من طرق ، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق ، وهو الحارث بن ضرار ، والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين ، رضي الله عنها ، قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سابق ، حدثنا عيسى بن دينار ، حدثني أبي أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعي يقول : قدمت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فدعاني إلى الإسلام ، فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت : يا رسول الله ، أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن استجاب لي جمعت زكاته ، ويرسل إلي رسول الله رسولا لإبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة . فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول فلم يأته ، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله ، فدعا بسروات قومه ، فقال لهم : إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان وقت لي وقتا يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت ، فانطلقوا فنأتي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق – أي : خاف – فرجع فأتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله ، إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي . فضرب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – البعث إلى الحارث . وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث ، فقالوا : هذا الحارث ، فلما غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله . قال : لا والذي بعث محمدا بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني . فلما دخل الحارث على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال " : منعت الزكاة وأردت

قتل رسولي ؟ . " قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني ، وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله . قال : فنزلت الحجرات : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ)إلى قوله : (حكيم)[١].

هذا هو سبب النزول الذي نزلت عليه الآية الكريمة لكن بقي علينا أن نقف على حقيقة ينبغي ألا تغيب أبداً عن خواطرنا – هذه الحقيقة هي : أن الصحابة رضي الله عنهم كلهم عدول شهد بعدالتهم القرآن الكريم في أكثر من موضع ، كما شهد بعدالتهم الرسول صلى الله عليه وسلم في أكثر من حديث – وإن من حدث من بعضهم من بعض المخالفات اليسيرة لا يسلبهم هذه العدالة ولا يخرم مروأتهم لأنهم لم يصروا على المخالفة ولم يجاهروا بها حتى يحكم عليهم بالفسق القادح في العدالة – لأن الفسق القادح في العدالة هو الفسق المجاهر المصر على فسقه والذي لم يتب عنه قال تعالى :" وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " [٢].

لذلك فإن كانت حادثة الوليد بن عقبة سبباً في نزول الآية الكريمة :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ .... " فإنها مجرد سبب لحكم عام لا يقدح في عدالة الوليد الذي هو أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي يدل سبب النزول على مدى منزلته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان رسولا له إلى بني المصطلق ليأتيه بزكاتهم ، كما أن الوليد لما نزلت الآية شعر بالذنب وتاب وحسنت نيته.

---

[١]) تفسير القرآن العظيم لأبن كثير جـ٤ ص ٢٠٨ ،٢٠٩ ، ، وانظر جامع البيان في تفسير القرآن لأبن جرير الطبري المجلد ١١ الجزء ٢٦ ص٧٨

[٢]) سورة النور آية ٤، ٥

قال الإمام الفخر الرازي: ما ذكره المفسّرون من أنها نزلت بسبب (الوليد بن عقبة) حين بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق ليقبض صدقاتهم... إلخ إن كان مرادهم أن الآية نزلت عامة لبيان وجوب التثبت في خبر الفاسق، وأنها نزلت في ذلك الحين الذي وقعت فيه حادثة الوليد فهذا جيد، وإن كان غرضهم أنها نزلت لهذه الحادثة بالذات فهذا ضعيف، لأن الوليد لم يتقصّد الإساءة إليهم، ورواية الإمام أحمد تدل على أنّ الوليد خاف وفَرق حين رأى جماعة الحارث– وقد خرجت في انتظاره– فظنّها خرجت لحربة فرجع وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بما أخبره ظناً منه أنهم خرجوا لقتاله.

يقول الإمام الفخر الرازي: ويدل على ضعف قول من يقول إنها نزلت لكذا أن الله تعالى لم يقل: إني أنزلتها لكذا والنبي عليه السلام لم ينقل عنه أنه بيّن أن الآية وردت لبيان ذلك فحسب، غاية ما في الباب أنها نزلت في ذلك الوقت وهو مثل التاريخ لنزول الآية، ويتأكد ما ذكرنا أن اطلاق لفظ (الفاسق) على الوليد شيء بعيد، لأنه توهّم وظنّ فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقاً، وكيف والفاسق في أكثر المواضع المرادُ به من خرج من ربقة الإيمان لقوله تعالى} :إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين] {المنافقون: ٦] وقوله تعالى :"فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ" [الكهف: ٥٠] وقوله تعالى :"وَأَمَّا الذين فَسَقُواْ فَمَأْوَاهُمُ النار" [السجدة: ٢٠] إلى غير ذلك. [١].

هذا وإن التنكير في كلمة فاسق الواردة في الآية هو للتعميم لأن فاسق نكرة في سياق الشرط ، وهي كالنكرة في سياق النفي تفيد العموم، كما قررة علماء الأصول والمعنى للآية الكريمة : إن جاؤكم أي فاسق بخبر فتثبتوا من خبره.وقال الشيخ الألوسي عند تفسيره للآية الكريمة : وجاء بحرف التشكيك (إن) ولم يقل (إذا) التي تفيد التحقيق، ليشير إلى أنّ وقوع مثل هذا إنما هو على سبيل (النّدرة) إذْ الأصل في المؤمن أن يكون صادقاً ولمَّا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن

---

[١]) التفسير الكبير للفخر الرازي جـ٧ ص٥٨٩

يخبرهم بكذب، وما كان يقع مثل ما فرط من (الوليد بن عقبة) إلاّ في النّدرة قيل "إِن جَآءَكُمْ "بحرف الشك.... [١].

هذا ولقد ذهب جمهور العلماء سلفاً وخلفاً إلى أن الصحابة رضي الله عنهم كلهم عدول، ببركة صحبة النبي صلى الله عليه وسلم، ومزيد ثناء الله عزّ وجلّ عليهم في كتابه العزيز كقوله سبحانه} :وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً[البقرة: ١٤٣] أي عدولاً، وقوله سبحانه : "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ[" آل عمران: ١١٠] وقوله جلّ ذكره} :مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ" [الفتح: ٢٩]. وقوله جلّ وعلا :"يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ الله وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ أولئك هُمُ الصادقون"[الحشر: ٨] وقوله جلّ وعلا : "رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ"[المائدة: ١١٩] إلى آخر ما هناك من الآيات الكثيرة التي تبين صدقهم وفضلهم وعدالتهم.

وكذلك ما ثبت في السنة المطهرة من مدحهم، والثناء عليهم، وبيان أنهم أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإطلاق، ونحن نذكر بعض هذه الأحاديث الشريفة التي تشير إلى فضيلتهم باختصار.

أ– قال صلى الله عليه وسلم :" خير الناس قرني، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم". [٢].

ب– وقال صلى الله عليه وسلم» :لا تسبُّوا أصحابي فالوالذي نفسي بيده لو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه" [٣].

ج– وقال صلى الله عليه وسلم : "اللَّهَ اللَّهَ في أصحابي، لا تتّخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبّهم فبحبي أحبّهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه"[٤].

---

[١]) روح المعاني للآلوسي بنصرف جـ٢٦ص١٤٥

[٢]) صحيح البخاري جـ٣ صـ١٣٣٥– باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

[٣]) صحيح البخاري جـ٣ صـ ١٣٤٣– باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

[٤]) تحفة ألأحوذي بشرح جامع الترمذي جـ١٠ صـ ٣٦٥ قال الترمذي هذا الحديث حسن غريب

فهذه الأخبار التي وردت في الكتاب والسنة كلها متضافرة على عدالة الصحابة وأفضليتهم على سائر الناس، وما وقع من بعضهم من مخالفات فليس يسوغ لنا أن نحكم عليهم بالفسق، لأنهم لا يصرّون على الذنب، وإذا تاب الإنسان رجعت إليه عدالته ولا يحكم بفسقه على التأبيد، فهذا (ماعز الأسلمي) الذي ارتكب الفاحشة يقول عنه النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أمر برجمه :"لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم"[١].

والقولُ: بأنَّ بعض الصحابة قد وقع في الذنب والمخالفة– بناء على الاعتقاد بعدم عصمتهم– لا يعني أنهم غير عدول، لن الفاسق الذي ترد شهادته وروايته هو الذي يصرّ على الذنب والمعصية، وليس في الصحابة من يصر على ذلك.

ثانياً :القضاء على النزاع الداخلي بين المسلمين :.

من الأسس التي يقوم عليها بناء المجتمع المسلم – وهو القضاء على النزاع الداخلي بين المسلمين بالطرق التي تكفل تماسك المجتمع المسلم وترأب الصدع بين الأخوة المؤمنين .

قال تعالى :" وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10) "[٢].

قد تثار الفتن بين المسلمين وقد يحدث بغي من جماعة من جماعات المؤمنين على جماعة أخرى ، وقد يخرج شخص بطائفة من المؤمنين على إمام المؤمنين ، صاحب البيعة العامة فعند ذلك يتعين على المؤمنين من غير المقاتلين أن يسعوا بالصلح بين المتقاتلين ويدعوهم إلى حكم الله ، فإن حصل بعد ذلك التعدي من أحدى الطائفتين المتقاتلتين

---

[١]) هذا جزء من حديث طويل رواه الإمام مسلم في صحيحه في قصة ماعز بن مالك الأسلمي جـ٣ صـ١٣٢٢.

[٢]) سورة الحجرت آية ٩ ،١٠

على الآخرى ولم تقبل الصلح ولا دخلت فيه كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله، وحكمة فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمة فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم وتؤدي ما يجب عليها للأخرى.

وقد ورد في سبب نزول قوله تعالى :" وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا "

عدة روايات وكلها تدل على أن قتالاً نشب بين طائفتين من المؤمنين فنزل النص الكريم ليرسم للمسلمين الطريق السوي للقضاء على مثل تلك النزاعات التي قد تحدث بين جماعة المؤمنين ومن تلك الروايات في سبب النزول ما اخرجه البخاري ومسلم أخبرنا إسحاق بن أبي إسرائيل ، قال : أخبرنا معتمر بن سليمان ، قال : سمعت أبي ، يحدث عن أنس ، قال : " يا نبي الله ، لو أتيت عبد الله بن أبي ؟ فانطلق إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة ، فلما أتاه النبي صلى الله عليه وسلم قال : إليك عني ، فوالله لقد آذاني نتن حمارك فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحا منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ، وكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فبلغنا أنه أنزلت فيهم : وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا سورة الحجرات آية ٩ "[١] . ، رواه البخاري ، عن مسدد ، ورواه مسلم ، عن محمد بن عبد الأعلى ، كلاهما عن المعتمر .وقد روى نحو هذا من وجوه آخر.

وهكذا نرى كيف يوضح لنا القرآن الكريم الطريقة العلمية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك، وذلك بإصلاح ذات البين بين المقاتلين حتى تضع الحرب أوزارها

---

[١]) صحيح البخاري باب ما جاء في الصلح بين الناس حديث رقم ٢٥٠٧، وفتح القدير للشوكاني جـ٥ صـ ٤٥ والدرر المنثور جـ٦ صـ٩٠

ويرجع الباغي عن بغيه ، وهذا أمر تفرضه الأخوة الإيمانية ويقتضيه الإيمان الذي صهر المؤمنين في بوتقة واحدة وجعلهم كالجسد الواحد،عن النعمان بن بشير ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " : مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. " [١].

قال تعالى :" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ "[٢].

وقد حث سبحانه على إصلاح ذات البين ، والسعي لفض التنازع بين جماعة المسلمين ، وجعل ذلك دليلاً على إيمان المؤمن وسبباً لفوزه بالأجر العظيم من الله تعالى فقال سبحانه :" فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"[٣].

وقال تعالى :" لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا "[٤].

والحق إذا تقاعس المؤمنون عن نصرة الطائفة المظلومة ولم يضربوا على أيدي الطائفة الظالمة ، ويردوها إلى الحق لاضطربت الأمور ولفسدت أحوال الأمة – ورحم الله الشيخ الشوكاني في هذه الآية قال تعالى :" وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ " وفي هذه الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرّر بغيها على الإمام، أو على أحد من المسلمين، وعلى فساد قول من قال بعدم الجواز مستدلاً بقوله صلى الله عليه وسلم:

---

١) صحيح مسلم » كِتَاب الْبِرِّ ، وَالصِّلَةِ ، وَالْآدَابِ » بَاب تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِم ... رقم الحديث: ٤٦٩١

٢) سورة الحجرات آية ١٠

٣) سورة الأنفال آية ١

٤) سورة النساء آية ١١٤

«قتال المسلم كفر»[١]، فإن المراد بهذا الحديث، وما ورد في معناه قتال المسلم الذي لم يبغ. قال ابن جرير: لو كان الواجب في كلّ اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه، ولزوم المنازل لما أقيم حقّ، ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبباً إلى استحلال كل ما حرّم الله عليهم من أموال المسلمين، وسبي نسائهم، وسفك دمائهم بأن يتحزّبوا عليهم، ولكفّ المسلمين أيديهم عنهم، وذلك مخالف لقوله صلى الله عليه وسلم: "خذوا على أيدي سفهائكم"[٢].

أقول: ومخالف أيضاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم "أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقالوا يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً ، فكيف ننصره ظالماً ؟ قال تأخذ فوق يديه "[٣].

وبهذا يتضح إيجابية الإسلام في تشريعاته حيث يقف بكل حزم في وجه العبث ، ويأخذ على أيدي العابثين الساعين في تقويض وحدة المجتمع المسلم وهدم بنيانه ، والعاملين على قطع أواصر الود والمحبة التي تثمرها أخوة الإيمان وينميها جلال العقيدة الإسلامية التي توجب على الجماعة المسلمة ألا تكون السلمية لها مكان بينهم أبداً – فإذا حدث نزاع أو شقاق بين طائفتين من المؤمنين فإنه يجب فض هذا النزاع بكل الوسائل الممكنة حتى لو أدى الأمر إلى لتدخل بالقوة حتى يسود الأمن والسلام بين المؤمنين ، وتسود الأخوة التي هي علامة مميزة للجماعة الإسلامية.

هذا ونحب أن ننوه هنا أن قتال الفئة الباغية ليس أمراً مشاعاً مباحاً لكل مسلم ، وإنما هو حق الإمام أو نائبه فقط ، وحتى لا يقع المجتمع الإسلامي في فوضى ويختل نظامه... أما الإصلاح بين الطائفتين المتحاربين فإن بابه مفتوح لكل من وجد نفسه أهلاً لذلك، وشعر بالكفاءة والمقدرة على فض النزاع بين الطائفتين سلمياً وبغير مشاحنة ..

---

١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ قال : صلى الله عليه وسلم (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) صحيح البخاري جـ ١ صـ ٢٧ كتاب الإيمان . باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

٢) فتح القدير للإمام الشوكاني جـ٥ صـ ٦٣ .

٣) صحيح البخاري جـ ٢ صـ ٨٦٣ باب (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً).

كما نحب أن ننوه هنا إلى هذا النداء الإلهي لهؤلاء الذين يحاولون فض النزاع بين المتخاصمين وأيضاً لكل من اصبح حكماً بين الناس عليه أن يعلم أن الله قد أوجب عليه العدل في الحكم ، فلا يجوز أن يحابي فريقاً على حساب الآخر لأي سبب من الأسباب، وليستحضر دائماً قول الله تعالى " يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا "[١].

فهذا النداء الإلهي أمر من الله تعالى لعباده بالثبات والدوام على قول الحق والشهادة بالصدق تقرباً إليه تعالى وطلباً لمرضاته ، حتى ولو كانت هذه الشهادة على النفس أو الوالدين والأقربين،

والأوامر الإلهية بإيجاب الحكم بالعدل بين الناس كثيرة في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

يقول الله تعالى : " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا " [٢].

ويقول سبحانه :" يَا أَيُّهَآ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلاَّ تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ "[٣].

ويقول عز من قائل:" إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ "[٤].

ثالثاً: حسن المعاشرة مع الآخرين وإحترام مشاعرهم:

---

١) سورة النساء آية١٣٥ .

٢) سورة النساء آية ٥٨

٣) سورة المائدة آية ٨

٤) سورة النحل آية ٩٠

إن من حقوق الأخوة التي أوجبها الله تعالى على المسلمين نحو بعضهم البعض وإحترام المسلم لأخيه المسلم وتقدير مشاعره ، وإنما يتحقق هذا بعدم السخرية منه ، وبالإبتعاد عن المعايب والمطاعن وعن التنابز بالألقاب التي يسوء الشخص سماعها وأن يدعي بها ، ويحس فيه سخرية وعيباً ، وقد قرر الحق تبارك وتعالى هذا فقال : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" [١].

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات أشهرها ما ذكره الشوكاني في تفسيره فقال أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله تعالى:" أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ..."

نزلت في قوم من بني تميم استهزؤا من بلال وسليمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبي حذيفة [٢].

وقال القرطبي : وقال الضحاك : نزلت في وفد بني تميم الذين تقوم ذكرهم في أول السورة استهزؤا بفقراء الصحابة مثل عمار وخباب وابن فهيرة وبلال مولى ابي حذيفة وغيرهم . لما رأوا من رثاثة حالهم ، فنزلت في الذين أمنوا منهم ، وقال مجاهد هو سخرية الغني من الفقير[٣].

وأيا من كان فمن نزلت فيه الآية الكريمة فإنها دعوة صريحة لعموم المؤمنين بأن يرعى بعضهم حقوق بعض ونهي صريح أيضاً لعموم المؤمنين عن أن يهزأ بعضهم من بعض أو يعيب بعضهم بعضاً أو أن يدعوا بعضهم باسم يرى فيه صاحبه سخرية وعيباً لأن من مقتضيات الايمان ومن حقوق الأخوة أن يحترم المؤمن مشاعر أخيه المؤمن فلا يهزأ به ولا

---

١) سورة الحجرات آية ١١

٢) فتح القدير للشوكاني جـ٥ صـ ٦٦

٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ١٦ صـ٣٢٥

يحقره ، وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمة المسلم وحرمة مشاعره وحرمة كرامته وإنسانيته فلا يهان ولا يذل ولا يحقر ولا يخذل ، بل وأكد حرمة دمه وماله وعرضه فقال صلى الله عليه وسلم :"المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه"[١].. وأخرج الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه. [٢].

وعلام يسخر الناس بعضهم من بعض؟ أليس الكل من ماء مهين ؟ أليس الكل من التراب وإلى التراب يعود . أليس الكل من طين ومن حمأ مسنون، أليس الكل من ذكر وأنثى ، فعلام السخرية أذن ؟ ولله در الشاعر إذ يقول:.

يامدعي الكبر اعجابا بصورته .....انظر خلاك فان النتن تثريب

لو فكر الانسان فيما في بطونهم ..... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب

يا ابن التراب ومأكول التراب غدا..... أقصر فإنك مأكول ومشروب

هذا ويستثنى العلماء من السخرية والعيب من غلب عليه الإستعمال ولا يحس بغضاضة مع إطلاق اللقب السئ عليه كان يصبح اللقب علما عليه ولا يستاء به .. قال القرطبي : إنه يستثنى من هذا من غلب عليه الاستعمال كالأعرج ، والأحدب ، ولم يكن له سبب يجد في نفسه منه عليه ، فجوزته الأئمة ، واتفق على قوله أهل اللغة اهـ ومن لم يتب عما نهى الله عنه فأولئك هم الظالمون لارتكابهم ما نهى الله عنه ، وامتناعهم من التوبة ، فظلموا من لقبوه ، وظلمهم أنفسهم بما لزمهم من الإثم . إلى أن

---

١) أخرجه البخاري جـ٢ صـ٨٦٢ باب لا يظلم المسلم المسلم .

٢) تحفة الأحوذي أبواب البر ، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم المجلد السادس صـ٥٤ وأخرجه مسلم في صحيحه جـ٤ صـ١٩٨٦.

قال : والذي يضبط هذا كله : أن كل ما يكرهه الإنسان إذ نودي به فلا يجوز لأجل الإذاية [١].

أما ذكر الإنسان بما لا يراد به شينه أو التحقير له ، أو الإنتقاص منه فهو جائز – أخرج البخاري في صحيحه في باب ما يجوز من ذكر الناس، نحو قولهم : الطويل والقصير ، ومالا يراد به شين الرجل : قال :وقال النبي صلى الله عليه وسلم :"ما يقول ذو اليدين" وفي رواية قال صلى الله عليه وسلم (صدق ذو اليدين) [٢].

وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وسلم :"أكما يقول ذو اليدين"[٣].

قال القرطبي: قال أبو عبد الله بن خويز منداد : تضمنت الآية المنع من تلقيب الإنسان بما يكره ، ويجوز تلقيبه بما يحب ، ألا ترى أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لقب عمر بالفاروق ، وأبا بكر بالصديق ، وعثمان بذي النورين ، وخزيمة بذي الشهادتين ، وأبا هريرة بذي الشمالين وبذي اليدين ، في أشباه ذلك .

يقول الزمخشري : روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم) - من حق المؤمن على المؤمن أن يسميه بأحب أسمائه إليه . (ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن ، قال عمر – رضي الله عنه – : أشيعوا الكنى فإنها منبهة . ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق ، وعمر بالفاروق ، وحمزة بأسد الله ، وخالد بسيف الله . وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب.

ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها – من العرب والعجم – تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير . قال الماوردي : فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فلا يكره . وقد وصف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عددا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجل الألقاب.

---

١) تفسير القرطبي جـ١٦ صـ٣٢٩.

٢) صحيح البخاري جـ٥ صـ ٢٢٤٩ كتاب الأدب حديث رقم ٥٧٠٤

٣) صحيح البخاري جـ١ صـ ١٨٢ كتاب المساجد باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره حديث رقم ٤٦٨

قلت : فأما ما يكون ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصفة لا العيب فذلك كثير . وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول : حميد الطويل ، وسليمان الأعمش ، وحميد الأعرج ، ومروان الأصغر ، فقال : إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن سرجس قال : رأيت الأصلع – يعني عمر – يقبل الحجر . في رواية الأصيلع. [١].

رابعاً :البعد كل البعد عن سوء الظن بالمسلم وعن تتبع العورات المستورة ، وعن الغيبة والنميمة .

هذا وتسير بنا السورة الكريمة عن نفس النسق السابق نحو الهدف المنشود من تحقيق التربية السامية ،وتحقيق المجتمع الفاضل الذي يسوده الحب وترفرف عليه رايات الطهر والفضيلة ، فتذكر لنا أدباً عظيماً يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتأدب به وأن يلتزمه منهجاً وسلوكاً ، مراعاة لحرمة أخيه المسلم وصيانة لكرامته.

يقول الله تعالى :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ "[٢].

والناظر في الآية الكريمة يرى أنها تهتف بالمؤمنين من أعماقهم أن يبتعدوا عن التهمة التي لا سبب لها ، وعن التخوين وإساءة الظن بالأهل والناس ، لأن في بعض الظن إثم وذنب يستحق صاحبه العقوبة عليه ، فضلاً عن كونه يفصم عري المودة ويزلزل أركان المحبة بين الأخوة المسلمين، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سوء الظن بالناس فقال

---

١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ١٦ صـ ٣٢٩-٣٣٠

٢) سورة الحجرات الآية١٢ .

عليه الصلاة والسلام :" إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا "[١].

كما تهتف الآية بالمؤمنين أن يبتعدوا عن البحث و التفتيش عما انكتم من عيوب المسلمين وعوراتهم قال تعالى : "ولا تجسسوا" أي يا معشر المؤمنين خذوا ما ظهر من أحوال الناس ولا تتبعوا عوراتهم، فلا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله تعالى . وفي النهي عن التجسس وتتبع عورات المسلمين بيان لفظاعة جرم التجسس وتتبع عوارات الناس ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التجسس وعن تتبع عوارات المسلمين في أكثر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : عن أبي بَرْزة الأسلميّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ: لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ "[٢]..

كما تهتف الآية أيضاً بالمؤمنين أن لا يذكر بعضهم بعضاً بالسوء في غيبته بما يكره وتجعل الآية الكريمة من يتناول أخاه المسلم بالسوء في غيبته كمن يأكل لحم أخيه ميتاً، في الشناعة والقبح ، لأن عرض الإنسان كلحمه وأنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الاستطالة في عرضه.

يقول الامام أبو السعود في تفسيره : الآية تمثيل وتصوير لما يصدر عن المغتاب في غلبه الشناعة من حيث صد ورد عنه ،ومن حيث تعلقه بصحابه على افحش وأشتمه طبعا وعقلا وشرعا [٣] هذا وفي قوله تعالى "ولا يغتب بعضكم بعضا " اشارة الى ان الغيبة المنهي عنها هي غيبه المؤمن واما الكافر فلا غيبه لأن الله تعالى قال " ولا يغتب بعضكم

---

١) صحيح البخاري جـ ٥ صـ٢٢٥٤ باب "يا أيها الذين آمنو اجتنبوا كثيراً من الظن"

٢) سنن ابي داوود جـ٤ صـ٢٧٠ كتاب الأدب – باب في الغيبة

(٣)– تفسير أبي السعود ج ٨ ص ١٢٢

بعضا " ولم يقل : ولا تغاتبوا آي لا يغتب بعضكم يا معشر المؤمنين كما ان المقصود بقوله تعالى "بعضكم بعضا" العموم فإن النهي عن الغيبة نهي عام لجميع المؤمنين وهكذا نرى الله عز وجل قد نهي عن الغيبة وهي ان تذكر الرجل بما فيه ، فإن ذكرته بما ليس فهو البهتان وقد ثبت معني ذلك في صحيح مسلم فمن ابي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" أتدرون ما الغيبة " قالوا الله ورسوله أعلم : ذكرك أخاك بما يكره قال أفرأيت كان فى أخس ما أقول – فقال ان كان فيه ما تقول فقد أغبته ، وأن فيه فقد بهته . [١]

وسئل الحسن البصري رضى الله عنه عن الغيبة فقال الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى الغيبة والافك والبهتان فأما الغيبة فهي أن تقول في أخيك ما هو فيه " أما الافك فهوا أن تقول ما بلغك وأم البهتان فهو ان تقول ما ليس فيه واما عن حكم الغيبة ، فمن المحقق انه لا خلاف بين العلماء في ان الغيبة من الكبائر وان على من اغاب أحدا التوبة الى الله تعالى – أما عن كفارة الغيبة ففيها ثلاثة أقوال :

قال فريق من العلماء ليس على المغتاب أن يتحلل من غيبة ممن إنما هي خطيئة بينه وبين ربه واحتج هذا الفريق بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه فليس ذلك مظلمة يستحلها منه وإنما المظلمة ما تكون فى المال والبدن وقال فريق آخر هي مظلمة وكفارته الاستغفار لصحابها الذي اغتابه واحتجت بحديث يروى عن الحسن قال كفارة الغيبة ان تستغفر لمن اغتبته وقال فريق ثالث هي مظلمة وعلى المغتاب الاستحلال منها واحتج هذا الفريق بقول النبي صلى الله عليه وسلم "من كانت له مظلمة لاحد من عرضه أو شيء ، فيلتحلله منه اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه [٢]

---

(١)– اخرجه مسلم فى صحيحه ص ٤ ص ٢٠٠١

(٢)– أخرجه البخارى من حديث ابي هريرة ص ٢ ص ٨٦٥ باب من كان له مظلمة عند الرجل

ومن المقرر ان الغيبة المحرمه انما تكون فى الشخص الذي يستر نفسه يعني مستور الحال اما الفاسق المعلن بالفسوق المجاهر به فليست الغيبة محرمه فيه ، يعنى اغتيابه ليس من قبيل الغيبة المحرمة شرعا لانه هتك الستر مع الله تعالى .

يقول العلامة الجمل فى تفسيره وليس من هذا الباب غيبه الفاسق المعلن به المتاجهر فإن فى الخبر من القي جلباب الحياء فلا غيبه له ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس فالغيبة اذن فى المرء الذى يستر نفسه [١]

قال القرطبي :روي عن الحسن انه قال ثلاثة ليست لهم حرمة : صاحب الهوي والفاسق المعلن والامام الجائر [٢]

وخلاصة الامر:

ان الغيبة محرمه الا فى امور استثناها العلماء لمصلحة عامة تمس حياة المسلمين كالنصيحة وذلك ما ثبت فى صحيح مسلم أن فاطمة بنت قيس لما استنصحت الرسول صلى الله علية وسلم عند ما خطبها معاوية وابو الجهم قال لها ناصحا " أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عاتقه " [٣]

وكذلك ما اخرجه البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استأذن عليه رجل فاجر قال " أئذنوا له بئس أخو العشيرة " [٤]

وتباح الغيبة أيضا فى سرد المظالم أمام القضاء وكذلك الشكاوى والفتوى ، وما يذكر فى كتب الحديث من الجرح وبالتعديل ، وكنصح الناس وتحذيرهم من الفساق الذين ظهر فسقهم واشتهر من جهرهم به يقول ابن كثير مشيرا الى تحريم الغيبة وما استثناء العلماء منها الغيبة محرمة بالاجماع ولا يستثني من ذلك الا ما رجحت مصلحته كالجرح والتعديل

---

(١)– الفتوحات الالهية حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٨٤

(٢)–تفسير القرطبي ص ١٦ص٢٣٩

(٣)– صحيح مسلم ج ٤ كتاب الطلاق ص ١٩٥

(٤)– صحيح البخارى ج ٨ ص ١٥–١٦

وكذا ما جرى مجرى ذلك ثم بقيت على التحريم الشديد وقد ورد فيها الزجر الاكيد . [١]

ويشير القرطبي ايضا الى اتفاق العلماء على ان الغيبة كبيرة من الكبائر فيقول ولا خلاف أن الغيبة من الكبائر وأن من أغتاب أحدا فعليه أن يتوب الى الله عز وجل [٢]

ويذكر الامام النووي فى شرحه على صحيح مسلم الامور التى تباح فيها الغيبة فيقول تباح الغيبة لغرض شرعي وذلك لستة اسباب :

١ –التظلم

٢ –الاستعانة على تغيير المنكر

٣ –الاستفتاء والشكاية

٤ –تحذير المسلمين من الشر

٥ –أن يكون الفاسق مجاهرا بفسقه أو ببدعته فيجوز ذكره بما يجاهر به

٦ –التعريف مثل ذكر الالقاب التى لا يعرف المرء إلا بها [٣]

---

(١)– تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٥٩–٣٦٠

(٢)– تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٣٣٧ مطبعة دار الكتب المصرية طبعة أولى

(٣)– صحيح مسلم بشرح النووي ج ٥ ص ٤٤٩–٤٥٠

المبحث الثالث

منهج السورة في تقرير الضوابط التي يجب يتصف بها المجتمع الإسلامي

اولاً :الاقرار التام بأن الناس جميعا يرجعون الى أصل واحد وأنهم في الحق سواء وأن معيار التفاضل بينهم هو التقوى :

يقول الله تعالى " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (١)

لقد تقدم الكلام على النداء من قبل الا أنه تغير المنادي فى هذا الموضوع عن المواضع السابقة فالمنادى هنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد شرحها هم الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم أما فى المواضع السابقة فالمنادي هم المؤمنون حاصة والسر فى ذلك أن ما وقع بعد النداء امور تتعلق بكل الناس وهو انتماؤهم الى أب واحد وام واحدة وهمها آدم وحواء عليهما السلام من الله تعالى ، وهذا الإنتماء أمر عام يشترك فيه المؤمنون وغير المؤمنين ومن ثم كان المنادى في الآية الكريمة عامة للناس.

ومما لا شك فيه ان هذا النداء الموجه الى البشرية كلها يذكرها بوحدة أصلها ومنشئها ، أنهم جميعا ينتمون الى ذكر وأنثي الى أب واحد " يأيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثي " وصيرهم الله تعالى بعد ذلك شعوبا وقبائل ليتعارف بعضهم الى بعض بالإيمان والمحبة فيتعمق فى نفوسهم تبعا لذلك معني ما بين المعيار الدقيق الذى على أساسه يكون التمايز والتفاضل ويختم رب العزة سبحانه والآية الكريمة ما بين المعيار الدقيق الذى على اساسه يكون التمايز والتفاضل بين الناس الذين وجه اليهم النداء بوحده الإنتماء والنشأة فقال تعالى " إن أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير " فلا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود ألا بالتقوي والاعمال الصالحة ولا يمايز بين الناس

---

(١) سورة الحجرات الاية ١٣

ولا تفاضل فى الدنيا والآخرة الا بذلك فقد أخرج البخارى وغيره عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الناس أكرم قال أكرمهم عند الله أتقاهم قالوا ليس عن هذا نسألك قال فأكرم الناس يوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله قالوا ليس هذا نسألك قال فعن معادن العرب تسألوني قالوا نعم قال خيارهم في الجاهلية خيارهم فى الاسلام إذا فقهوا [١]

وقد وردت أحاديث كثيرة فى الصحيح وغيره تبين أن التقوي هي التى يتفاضل بها العباد وإن الاسلام لا يعرف العنصرية أو القومية ولا يقر بمبدأ المفاضلة بين الناس على اساس من الجنس أو اللون أو الوضع الاجتماعى وأمثال ذلك ما أخر حجة الترمذي عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :(الناس بنوا آدم وخلق الله آدم من التراب) [٢]

والآية الكريمة قيل أنها نزلت أبي هند فقد أخرج أبو داود فى مراسيه وابن مردويه والبيهقي فى سننه عن الزهرى قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني بياظه أن يزوجوا أبا هند أمرآه منهم ، فقالوا يارسول أنزوج بناتنا موالينا؟ فنزلت هذه الآية "يا ايها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثي ....." الآية وقيل انها نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس ، وقوله فى الرجل الذي لم يفسح له ابن فلانه فقال النبي صلى الله عليه وسلم " من الذاكر فلانه ؟" قال ثابت أنا يارسول الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم "أنظر فى وجوه القوم " فنظر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " ما رأيت؟ " قال: رأيت أبيض وأسود وأحمر فقال صلى الله عليه وسلم " انك لا تفضلهم الا بالتقوي " فنزلت في ثابت هذه الايه ونزل فى الرجل الذي لم يفسح له " يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا " وقيل أنها نزلت فيمن عابوا بلال رضى الله عنه قال ابن عباس لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلال حتي علا ظهر

---

(١)– فتح القدير للشوكاني ج ٥ ص ٦٩

(٢)– أخرجه الترمذي ج ٥ ص ٦٥

الكعبة فأذن فقال بن أسيد بن أبي العيص الحمد لله الذي قبض أبي حتي لا يرى هذا اليوم ، وقال الحرث بن هشام ما وجد محمد غير هذا الغراب الاسود مؤذنا ، وقال سهل بن عمرو: أن يرد الله شيئا بغيره ، وقال أبو سفيان :أنا لا أقول شيئا أخاف أن يخبره به رب السموات ، فأتي جبريل النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله هذه الايه " يا أيها الناس أنما خلقناكم من ذكر وأنثي ...." زجرا لهم عن التفاخر بالانساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء ، وأن المدار على التقوي لأن الجميع من آدم وحواء وإنما الفضل بالتقوي [١] .

وعلى أية حال فالعبرة دائماً بعموم اللفظ النازل بالحكم لا بخصوص السبب وعلى المؤمنين وخاصة والناس بعامة أن يعرفوا ذلك وأن يلتزموه وأن يعلموا " أنه لا نسب كالتقوي ولا حسب كالإسلام ولا شرف كالعلم ".

والشعوب في قوله تعالى " جعلناكم شعوباً وقبائل " جمع شعب بفتح الشين وهو الحي العظيم والقبائل جمع قبيلة وهي أقل من الشعب وسمي الحي العظيم من الناس شعبا لتشعبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة .

وقال الشيخ الجمل فى حاشيته وعبارة الخطيب: وطبقات النسب سبع الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة بوزن قبيلة والعشيرة وكل واحدة تدخل فيما قبلها فالقبائل تحت الشعب والعمائر تحت القبائل والبطون تحت العمائر والافخاذ تحت البطن والفصائل تحت الافخاذ والعشائر تحت الفصائل فخزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عبارة وقصي بطن وعبد مناف فخذ فصيلة والعباس عشيرة ، وليس بعد العشيرة حي يوصف وسمي الشعب شعبها لتشعب القبائل منه [٢]

ومعنى الآية الكريمة : أي يا أيها الناس جميعا نحن بقدرتنا خلقناكم من أصل واحد وأوجدناكم من أب وام فلا تفاخر بالآباء والأجداد ولا اعتداد بالحسب والنسب كلكم

---

(١)– حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٨٥ نقلا عن القرطبي

(٢)– حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٨٥

لآدم وآدام من تراب وجعلناكم شعوبا شتى وقبائل متعددة ليحصل بينكم التعارف والتألف لا التناحر والتخالف أو ليعرف الانسان نسبه فينتسب كل واحد منكم الى نسبه ولا يعترى الى غيره فقال فلان بن فلان من قبيلة كذا ان أفضلكم عند الله تعالى أتقاكم لله وأخشاكم له ، فمن أراد شرفا فى الدنيا ومنزلة عظيمة فليتق الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم من سرة أن يكون أكرم الناس فليتق الله " ان الله عليم بالعباد مطلع على طوا هرهم وبواطنهم بعلم التقي والشقي والصالح والطالح " فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقي " [١]

ثانياً :نبذ النفاق بكل صوره وأشكاله خاصة في مجال العقيدة والإعتراف الكامل بأن الفضل لله وحده:

هذا الأدب من جملة الآداب التى اشتملت عليها سورة الحجرات والتى دعت المسلمين جمعا الى التأدب بها والانصياع لها لما فيها من الخير العميم للأمة بأسرها ولما يترتب عليها من تكوين المجتمع الفاضل الذى تنشده الامة وترجوه .

وان صلة هذا الآدب بما تقدمه من آداب صلة وثيقة ، فبعد أن بين الله تعالى فى الآيات السابقة أنه حبب الإيمان الى أهله وزينه فى قلوبهم وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ولما قرر الله تعالى مبدأ الاخاء ودعائمة واتبع ذلك بيان انتماء الانسانية جميعا الى اصل واحد وأن أساس التفاضل بينهم هو التقوي التى هي غاية للايمان واساس تكريم المرء لما بين الله تعالى كل ذلك بين أن الايمان الذى سبق الحديث عنه إنما هو تصديق بالقلب يتبعه ما يبرهن ويدل عليه من الاقوال والافعال كالجهاد بالمال والنفس وكل ما يؤدي الى تحقيق ذلك التصديق وان من أتي بخلاف ذلك فهو المنافق الكاذب قال تعالى ") قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

---

(١)– سورة النجم الآية ٣٢

أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" .

قال المفسرون نزلت فى نفر من بني أسد قدموا المدينة فى سنة مجدبة ، وأظهروا الشهادتين ، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وفلان يريدون الصدقة على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى هذا القول للمفسرين فى سبب نزول هذه الايات يكون المراد بالأعراب فى الآيات هم الذين نافقوا من بني أسد فاظهروا الاسلام وأبطنوا الكفر ، وقد ذهب الامام البخارى رحمه الله عليه الى هذا القول وقد ذهب ابن كثير رحمة الله تعالى إلى أن الآيات نزلت في قوم ادعوا لانفسهم مقام الايمان ولم يحصل لهم بعد فأدبوا وأعلموا ان ذلك لم يصلوا اليه بعد ولو كانوا منافقين لعنوا وفضحوا كما ذكر المنافقين فى براءة وانما قيل لهؤلاء تأديبا " قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم " أى لم تصلوا الى حقيقة الايمان بعد [١]

والذى يوحي به النص الكريم أن اولئك النفر من الاعراب أظهروا الاسلام تقية ورغبة فى الحصول على الصدقة بذلك يكونون قد نافقوا يقول الامام الشوكاني فى تفسيره لما ذكر سبحانه ان أكرم الناس عند الله أتقاهم له وكان اصل التقوي الايمان ذكر ما كانت تقوله العرب من دعوي الايمان ليثبت لهم الشرف والفضل فقال " قالت الاعراب آمنا وهم بنو أسد أظهروا الإسلام في سنة مجدية يريدون الصدقة فامر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم فقال " قل لم يؤمنوا " أي لم تصدقوا تصديقا عن أعتقاد قلب وخلوص نيه وطمأنينة " ولكن قولوا أسلمنا " أي استسلمنا خوف القتل والسبي أو للطمع فى الصدقة وهذه صفة المنافقين لأنهم أسلموا فى ظاهر الأمر ولم

---

(١)– انظر تفسير ابن كثير – سورة الحجرات ج ٧ ص ٣١٧

تؤمن قلوبهم ولهذا قال سبحانه وتعالى " ولما يدخل الإيمان في قلوبكم " اى لم يكن ما أظهرتموه بألسنتكم عن مواطأة قلوبكم بل مجرد قول باللسان من دون اعتقاد صحيح ولانية خالصة . [١]

هذا ويجدر بنا ونحن فى مقام الحديث عن نفر من الاعراب أظهروا الاسلام وابطنوا الكفر ، أن نذكر كلمة عن النفاق نبين فيها حقيقته وأقسامه وبعض صفات المنافقين فنقول:

ان من الامور التي تشين الانسان وتنزله من قمة الايمان الى حضيض الكفر النفاق وما أصيب أحد بشئ منه الا مقته الله ورسوله والناس أجمعون لما لذلك الخلق من مضار ومضاعفات شخصية واجتماعية وقد ظهر هذا الخلق المرذول أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجدت بين صفوف المسلمين طائفة أظهرت خلاف ما تبطن .

فلبست ثوب الايمان في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وإذا خلوا الى شياطنهم قالوا انا معكم إنما نحن مستهزئون [٢]

مما ألحق المسلمين الخلص أشد الويلات وأعظم البليات لولا ان الله سلم ومواقف المنافقين فى الغزوات أكبر شاهد على ذلك حيث تقاعسوا عن الجهاد وخذلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اشد المواقف وان غزوة أحد من الغزوات التي تدل على سوء فعال المنافقين وخبثهم ولؤمهم وقد أنزل الله فى ذلك قرآنا يفضحهم إلي يوم القيامة.

وأما عن حقيقة النفاق فقد ذكر العلماء له تعريفين : تعريفا يبين حقيقة النفاق فى اللغة وآخر يبين حقيقته فى الاصطلاح :

تعريف النفاق لغة :

فقد قال علماء اللغة ان النفاق كلمة مشتقة من النافقاء وهو حجر ايرموع واليرموع حيوان فى البرية له حجرأحدهما يقال له النافقاء والثاني يثال له الفاصعاء ويفضل اليرموع

---

(١)- فتح القدير للشوكانى ج ٥ ص ٦٧-٦٨

(٢)- سورة البقرة الآية ١٤

ذلك لإظهار غير الحقيقة دفاعا عن حياته فهو يختؤق الارض حتي إذا كان يبلغ ظاهرا أرق التراب فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه وخرج فظاهر حجره تراب وباطنه حفر وكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر [١].

اذن فالنفاق لغة اظهار خلاف ما يبطن .

وتعريف النفاق فى الاصطلاح هو إظهار الاسلام والعياذ بالله تعالى وأما عن أقسام النفاق:

فإنه ينقسم الى قسمين :

١- نفاق العقيدة : وهو أن يظهر الإسلام ويخفى الكفر أن يدعي الاسلام بلسانه فقط وينكره بقلبه وهو أشد أنواع الكفر .

٢- نفاق العمل : ويسمي النفاق الاجتماعي وهو ان يخالف عمله قوله ولو نظرنا الى قسم النفاق لوجدنا أن نفاق العقيدة كفر صريح وأن أصحاب هذا القسم من الناس كفار بل أشد من الكفار عذابا يوم القيامة ويصدق فهم قوله الله تعالى " إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا "

٣- وهم المعنيون بقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم " ولا تصل على احد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره أنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون

٤- فهؤلاء الناس ليسوا أهلا للمعاملة الإسلامية ولا يجب لهم للمسلمين بل أنهم أصبحوا على النقيض من المسلم فغذا أرادوا أن يدخلوا حظيرة الاسلام ويعودوا الى ربهم فالداء الناجح والعلاج النافع يتمثل فى التوبة الى الله تعالى وأصلاح النفس والاعتصام بحبل الله والاخلاص لدين الله تعالى " الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيم [٢]

---

(١)- لسان العرب ج ١٢ ص ٢٣٦

(٢)- سورة النساء آية ١٤٦

٥- وأما نفاق العمل فهو أن يكون العبد مقرا بلسانه وقلبه ولكنه يأتي بما ليس من أخلاق المؤمنين كأن يكذب فى الحديث أولا يفي بالوعد أو يخون فى الامانة وهذا الصنف من الناس هم المعنيون بقول الرسول صلى الله عليه وسلم "آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان [١]

فهذه الأمور وغيرها من الاشياء التى لا تليق بمؤمن فهي وأن كانت من امارات النفاق العقيدة ليست فى نفاق العمل اذ سرعان ما يفيق المؤمن من غفوته ويشرق نور الإيمان في قلبه سريعا الى خطيرة ربه والعمل بأوامر الدين الحنيف ولا شك أن كل النفاق مرد وله ويجب على كل مسلم أن يتجنبها لأنها من الآفات التى تقضي على سعادة الافراد والامم وعلى المؤمنين أن يطهروا المجتمع منها وأن يلتزموا بما يزين المؤمن من الصدق والوفاء بالوعد والأمانة عملا بقوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ" [٢]

وقوله تعالى " وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ" [٣] ، وقوله تعالى " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا" [٤]

وأما عن صفات المنافقين وبعض سماتهم فهي كثيرة كالكذب ومحاوله اخفائه بالايمان الكاذبة ونحو ذلك والصد عن سبيل الله تعالى وتثبيط هم المسلمين عن الجهاد ونحوه والخوف " يحسبون كل صيحة عليهم" والكبر والتعالى عن قبول الحق والخداع والغش والمراوغة واثارة الخلاف بين المسلمين والبخل والشح فى الصدقات والانفاق فى سبيل الله وان من يتتبع القرآن الكريم يجد العديد من الآيات التى تتحدث عن النفاق وتفضح المنافقين ويكشف احوالهم وتبين خبايا نفوسهم .

---

(١)- صحيح مسلم ج ١ ص ٧٨ باب بيان خصال المنافق – طبعة أولي وصحيح البخارى ج ٢ ص ٩٥٢ باب من أمر بإنجاز الوعد دار العلم بيروت

(٢)- سورة التوبة آية ١١٩

(٣)- سورة النحل آية ٩١

(٤)- سورة النساء الآية ٥٨

ثالثاً : معرفة حقيقة كل من الايمان والاسلام، والفرق بينهما:

وهذا ونعود الى قوله تعالى " قالت الاعراب قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم الى أخر قوله تعالى " أن الله يعلم غيب السموات والارض والله بصير بما تعلمون لنقف على بعض الحقائق التى اشتمل عليها ثم نذكر المعني العام للنص الكريم بأكمله ان شاء الله تعالى .....

١) : الأعراب هم اهل البوادي – أما العرب فهم سكان الحواضر من ينظر الى طباع الاعراب وأخلاقهم يجد فيها شدة وحدة تختلف كثيرا عن طباع وأخلاق العرب سكان الحضر التى تتميز بالهدوء والتمدين .

٢) الايمان فى اللغة هو التصديق أي مطلق التصديق بشئ ما تصديقا قلبيا لا يقبل الشك [١] وأما معني الإيمان فى اصطلاح الشرع فهو تصديق النبي صلى الله عليه وسلم فى كل ما جاء به وفي كل ماهو معلوم الدين بالضرورة كالتوحيد والشهوه والبعث والجزاء ونظائرها [٢]

والاسلام فى اللغة هو :الاستسلام والانقياد الظاهري

وفي اصطلاح الشرع هو الخضوع الظاهرى لكل ماجاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الاقوال والأفعال كالقيام بأداء الصلاة والزكاة والصيام والحج وما يتبع ذلك من فروع الاسلام .

يقول ابن منظور فى لسان العرب : والاسلام والاستسلام والانقياد والاسلام من الشريعة اظهار الخضوع وأظهار الشريعة وإلتزام ما أتي به النبي صلى الله عليه وسلم[٣]

٣) لفظة و(لما): جازمة يعني من ادوات الجزم – وتفيد النفي – ولكن يختص نفيها بالحال فقط لان النفي بها متوقع الحصول فى المستقبل وهذا هو سر الاتيان بها دون

---

(١)– أنظر القاموس المحيط ج ٤ ص ١١٩

(٢)– أنظر تفسير ابن جرير ج ١ ص ١٠١

(٣)– لسان العرب ج ٣ ص ٢٠٨٠ مادة مسلم

غيرها فى هذا الموضوع من النص الكريم وكأن الله تعالى أراد أن يقول لهم أنكم يامعشر الاعراب لم تؤمنوا حقيقة الى الآن ولكن يتوقع حصول ذلك منكم مستقبلا وقد جاء فى كتب التفسير أنهم أي الأعراب الذين نزل فيهم النص الكريم قد آمنوا كلهم أو بعضهم وحسن إيمانهم .

قال فى حاشية الجمل :(وما في "لما" من معني التوقع دال على ان هؤلاء قد آمنوا بعد)[١]

٤) لفظة (يلتكم) معناها :ينقصكم يقول ابن قتيبه :هو من لات يليت ويلوت وفى لغة أخري هي من ألت يألت ألتاً [٢].

وقد قرئت اللفظة الكريمة بالقراءتين فقرأها الجمهور (يلتكم) من لاته يليته كباع ويبيعه وقرأها أبو عمرو (لايألتكم) بالهمز –من ألته يألته بالفتح فى الماضي والكسر فى المضارع– وهما لغتان فصيحتان وقد وردت اللغتان في القرآن الكريم في الآية التى معنا في النص(لا يلتكم).

وفي قوله تعالى فى سورة الطور" ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ" [٣]

٥) لفظة يمنون – المن هو تعداد النعم على المنعم عليه والمن مذموم من الخلق لأن فيه تعيير من المُنعم للمنعم عليه وممدوح من الله تعالى لأن فى تعداد النعم تذكيراً بها وبيان فضل الله على عباده والمعني العام للنص الكريم:" قالت الأعراب آمنا " أي زعم الأعراب أنهم آمنوا بالله ورسوله فقالوا صدقنا بقلوبنا فأمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم أنتم لم تؤمنوا حقا ولم تدخلوا فى الايمان صدقا لان الايمان تصديق مع ثقه واطمئنان قلب ولم يحصل لكم ذلك والا لما مننتم على الرسول صلى الله

---

(١)– حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ص ١٨٦

(٢)– تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤١٦

(٣)–سورة الطور الآية ٢١

عليه وسلم بالإسلام وترك القاتله ولكن قولوا استسلمنا خوف القتل والسبي او للطمع فى الصدقة "ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم "أي الحال أن الإيمان الحق لم يدخل قلوبكم بعد ولم تصلوا إلى حقيقته وسوف يحصل لكم الإيمان الحق عند اطلاعكم على محاسن الاسلام وتذوقكم لحلاوة الإيمان "وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من آعمالكم شيئا ان الله غفور رحيم" أي وان تطيعوا الله ورسوله فى كل ما أمركم به وما نهاكم عنه وأخلصتم لله ورسوله إخلاصا صادقاً وأمنتم إيمانا كاملاً وتركتم المن على الرسول صلى الله عليه وسلم ،فإن الله تعالى لا ينقصكم من أجوركم شيئا لأن الله تعالى عظيم المغفرة وأسع الرحمة يتجاوز عن عباده ويعفو عن السيئات ، ثم ذكر تعالى صفات المؤمنين الكمل الصادقين فى إيمانهم المستحقين لإطلاق أسم الإيمان عليهم فقال سبحانه" إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون" أي أنما المؤمنين الصادقون في دعوي الإيمان ، الذين صدقوا الله ورسوله فأقروا لله تعالى بالوحدانية ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة عن يقين راسخ وإيمان كامل – ثم لم يشكوا أو يتزلزلوا في إيمانهم بل ثبتوا على التصديق واليقين ، وبذلوا أموالهم في سبيل الله وابتغاء رضوانه أولئك الذين صدقوا فى إدعاء الإيمان والدخول فى عداد أهله ، ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لأولئك الأعراب وأمثالهم قولا آخر لما أدعو أنهم مؤمنون فقال تعالى :" قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شئ عليم" أى قل لهم يا محمد أتخبرون الله تعالى بما فى ضمائركم وقلوبكم ، وهو جل وعلا العليم بأحوال جميع العباد لا يخفي عليه خافية فى السموات ولا فى الارض وهو سبحانه واسع العلم رقيب على كل شئ لا يعزب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ثم أخبر الله سبحانه ورسوله بما يقوله لهم عند المن عليهم بما يدعونه من الاسلام فقال سبحانه :" يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين " أي يعدون إسلامهم منة عليك يا محمد يستوجبون عليها الحمد والثناء حيث قالوا جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ، قل لهم يا محمد لا تمنوا

علىّ بإسلامكم، فإن نفع ذلك عائد عليكم راجع إليكم لا يتخطاكم إلى غيركم ، بل لله تعالى المنة العظمى عليكم بالهداية للإيمان والتثبيت عليه إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان ، ثم ختم الله تعالى السورة الكريمة ببيان كمال علمه وإحاطته بجميع المعلومات، فقال:" إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ "[1]. أي أن الله تعالى يعلم كل ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض ، لا يخفى عليه من ذلك من شئ ، هو سبحانه مطلع على أعمال العباد وسيجازيهم بالخير خيرا وبالشر شرا.

وهكذا نرى الله تعالى كرر الأخبار بعلمه بجميع الكائنات ، واحاطته بجميع المخلوقات ليدل على سعة علمه وشموله بكل صغيرة وكبيرة في السر والعلن والظاهر والباطن .... والله تعالى أعلم

١) سورة الحجرات الآية ١٨ .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيرا.

فقد تم بحمد الله وتوفيقه هذا البحث الذي عنونت له (المجتمع المسلم في ضوء سورة الحجرات) وبعد أن استعرضنا السورة الكريمة ووقفنا على ما اشتملت عليه من آداب رفيعة وأخلاق كريمة يتضح لنا وجه تسمية سورة الحجرات سورة الأخلاق والآداب ، فقد اشتملت السورة الكريمة على العديد من الآداب وأرشدت إلى مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال ، وجاء منها النداء بوصف الإيمان خمس مرات وفي كل مرة ارشاد إلى مكرمة من المكارم وفضيلة من الفضائل ينمو ويترعرع في كنفها أفضل المجتمعات وأطهرها على وجه الأرض ، وما بقي علينا معشر المؤمنين إلا أن نذعن لأمر ربنا ، ونعمل بكل ما أمرنا به ونقول (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) ، وقد توصلت بفضل الله تعالى إلى النتائج الآتية:

١) أن سورة الحجرات هي من السور المدنية بإتفاق العلماء ومحورها الرئيس الذي تدور حوله ، هو بناء الإيمان الصحيح وترسيخ مبادئه في المجتمع الإسلامي ، ومحاربة الأخلاق الرذيلة التي تفكك بنيانه .

٢) أن الأدب مع الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) يقتضي تحكيم الكتاب والسنة في كافة شئون الأمة.

٣) بيان أن الإسلام يعمل على صون حرمات المسلمين ، وقد إنتهجت السورة الكريمة لتحقيق هذا الهدف عدة طرق منها التثبيت في تلقي الأخبار ، والصلح بين المؤمنين ، وعدم التجسس على الآخرين ، وتتبع عوراتهم وغير ذلك.

٤) أن معيار التفاضل بين المؤمنين هو التقوى فقط، وبذلك يكون الإسلام أول دين يعتني بقضية حقوق الإنسان والقضاء على العنصرية والتفرقة بين الناس.

٥) ثبات منظومة الأخلاق الإسلامية ، فالأخلاق الإسلامية تدور مع حدود الشرع حلاً وحرمة ، بخلاف الأخلاق الوضعية المصلحية التي تتبدل وتدور مع المصالح ، فأخلاق اليوم مثالب الغد والعكس بالعكس.

والله تعالى أعلم وصلي الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم

٢- صحيح البخاري، ط دار العلم بيروت ، ط١ ،١٤٢٢هـ

٣- صحيح مسلم ، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،د.ث

٤- سنن الترمذي ، ط مصطفى البابي الحلبي ، ط٢ ، ١٣٨٨هـ

٥- تحفة الأحوذي ، دار الفكر للطباعة ،ط٣ ،١٩٧٩م

٦- سنن ابن ماجة ، دار الجيل ، بيروت ط اولى ١٤١٨هـ

٧- مسند امام أحمد بن حنبل ، ط مؤسسة الرسالة ، طاولى ١٤٢١هـ

٨- جامع البيان في تفسير القرآن لأبن جرير الطبري ، تحقيق أحمد شاكر ، ط الرسالة ،١٤٢٠هـ

٩- تفسير ابن كثير ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ثانية ، ١٤٠٧هـ

١٠- تفسير القرطبي(الجامع لأحكام القرآن) ط دار الكتب المصرية ، القاهرة ، الثانية ١٣٨٤هـ

١١- التفسير الكبير للفخر الرازي، دار الكتب العلمية ببيروت ، ط اولى ١٤٢١هـ

١٢- فتح القدير للشوكاني ، ط دار ابن كثير، دمشق ط ١ ،١٤١٤هـ

١٣- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، دار الفكر ، بيروت ،١٩٩٣

١٤- روح المعاني للألوسي، ط دار الكتب لعلمية ، بيروت ، ط أولى ، ١٤١٥هـ

١٥- حاشية الجمل على الجلالين، دار الفكر – بيروت .د ت.

١٦- القاموس المحيط ، ط مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ثانية ، ١٤٢٦هـ

١٧- لسان العرب ، ط دار صادر ، بيروت ، ط ثالثة ،١٤١٤هـ.

١٨- غريب القرآن لأبن قتيبة ، دار الكتب العلمية ط ٢٠١٠م.

١٩- تفسير ابو السعود ، المسمى "إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،طدار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د.ت"